

تأثير العولمة على مقومات الدولة: الهوية الثقافية أنموذجا
**The impact of globalization on the components of the
state: cultural identity as a model**

الدكتور عبد القادر تومي
المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة

تاريخ الاستلام: 2024/04./03 تاريخ القبول: 2024/04/06 تاريخ النشر: 2024/04./09

ملخص

يكتسي البحث في موضوع العولمة وتأثيراتها أهمية قصوى، أولا لأنها ظاهرة تاريخية كبرى شديدة التعقيد، وأغلب شعوب الأرض تسعى إلى فهم مخاطرها وتأثيراتها، والتعرف على وسائلها، وأهدافها، والبحث في تطورها والتنبؤ بنتائجها. وثانيا إنها لا تفهم بغير الأسلوب العلمي، الذي يتبنى النموذج المعرفي المتكامل وقياس الظاهرة قياسا رياضيا، كما يذهب إلى ذلك عالم الفيزياء البريطاني اللورد كيلفين في قوله: "عندما يستطيع المرء قياس ما يتحدث عنه، ويعبر عن ذلك بالأرقام، فإنه يكون قد بلغ شيئا من المعرفة بما يتحدث عنه، ولكن عندما لا يكون بمقدور المرء قياس ما يتحدث عنه، ولا التعبير عنه بالأرقام، فإن معرفته بالشيء عندئذ تكون ضئيلة ولا تشفي غليلا."

Abstract

Research on the subject of globalization and its effects is of paramount importance, first because it is a major historical phenomenon of great complexity, and most peoples of the earth seek to understand its risks and effects, identify its means and objectives, research its development and predict its results. Secondly, it is understood only by the scientific method, which adopts the integrated cognitive model and measures the phenomenon mathematically, as the British physicist Lord Kelvin argues in saying: "When one can measure

what he is talking about, and express it in numbers, he has attained some knowledge of what he is talking about, but when one cannot measure what he is talking about, nor express it in numbers, then his knowledge of something is minimal.

مقدمة

إشكالية هذا الدراسة تدور حول البحث في مختلف تأثيرات العولمة على مقومات الدولة القطرية

الأمر الذي يجعلنا نطرح مجموعة من التساؤلات أبرزها: هل عملت العولمة على تدمير الثقافات الأصيلة واستبدالها بأخرى أم حافظت على هذه الثقافات وطورتها؟

ان التحولات السريعة والتغيرات المختلفة التي يشهدها العالم في الوقت الراهن ، جعلت الإنسانية تتجه نحو الشمولية، والاندماج غير إنّه وبقدرا ساهمت العولمة في التقارب بين الأفراد بفضل الخدمات المختلفة فإنها بقدرا باعدت بينهم بفعل التنافس والتسابق، وكان من نتائج هذه التحولات العميقة أن أفرزت تباينا واضحا في موازين القوى ، فظهرت قيما جديدا وزالت أخرى. وانتصرت الرأسمالية الغربية في نظر كثير من المفكرين وأصبحت اليوم "عالمية تحت قيادة الولايات المتحدة الأمريكية" (Rachid sfar- 1999, P : 43) معلنة بداية مرحلة جديدة تحولت فيها منظمة الأمم المتحدة إلى أداة طيعة في يد الولايات المتحدة وبرزت الرأسمالية في صيغة نظام اقتصادي واجتماعي لا منافس له ، و برزت هذه الأخيرة قطبا يطمح للهيمنة والسيطرة على العالم اقتصاديا وسياسيا وعسكريا وإعلاميا وثقافيا. ولكن المشكلة تكمن في أن تداعيات العولمة لا تهدد عالم الجنوب فقط بل تصل تهديداتها إلى عالم الشمال، سواء تعلق الأمر بالتهديدات الكبرى مثل أسلحة الدمار الشامل والإرهاب أو ما وصفه وزير خارجية ألمانيا فرنك فالتر شتاينماير "Frank- Walter Steinmeier بالتهديد "اللين"، مثل التغيرات الجسيمة في البيئة والمناخ، الفقر، كوارث التربية والتعليم، والجوانب المظلمة للعولمة، منها أفواج اللاجئين والأمراض والأوبئة مثل فيروس نقص المناعة والإيدز أو الملاريا. فهي تهدد الأمن والاستقرار.

وروج أنصار العولمة إلى ايجابيات العولمة، وتحدثوا عن تنوع مجالات الاستثمار، وتحرير الأسواق وتوحيدها وتسهيل انتقال رؤوس الأموال ، و زيادة السلع والخدمات كما ونوعا، وتعميق التبادلات التجارية بين الأمم . لكن بالمقابل وجد المتعولمون (المنفعولون بالعولمة) على أرض واقعهم الاقتصادي سلبيات كثيرة، مثل زيادة مستوى الفقريين أفراد دول العالم، بالإضافة إلى انخفاض الأجور، و زيادة التضخم، وارتفاع نسبة البطالة ، وعدم استقرار العملات فضلا على تفكيك الاقتصاديات الوطنية .

ومن صفات الحالة الراهنة أيضا بروز مشاعر الإحباط والقلق لدى جماهير واسعة في العالم، وظهور خلافات وفتن كثيرة في مجتمعات مختلفة، لذلك لم تستطع البشرية في العصر الحديث تحقيق العدالة الاجتماعية. وعليه فقد زادت حدة الفقر، وكثرت معاناة الأفراد، وكل ما هنالك ان الناس أصبحوا يعيشون فضلا من فصول التاريخ عنوانه العولمة.

وانقسم الناس إزاء العولمة إلى أقسام . فمنهم من اعتبرها شرا لا بد من مواجهته ومحاربته، و منهم من اعتبرها معلما من معالم تطور البشرية، ومنقذا من التخلف والانحطاط. وذهب آخرون إلى البحث في كيفية التعامل معها. ومرد هذه الحيرة يرجع إلى اختلاف فهم الخلفية الفكرية التي تقوم عليها العولمة، وإلى البنية الاجتماعية والاقتصادية التي يتأثر بها. ورغم ذلك يقف الملايين من الناس لا يفقهون ما يدعو إليه أنصار العولمة ومؤيدوها، ولا يدركون ما يقوله غيرهم من الرافضين لها. ونظرا للسرعة التي هي عليها الظاهرة ، أصبح الناس يترقبون ما تفرزه الظاهرة . وهذه المسألة هي التي سيكشف عنها هذا البحث انطلاقا من رؤيتنا الخاصة.

ونحن هنا لا نرى إمكانية فهم ظاهرة العولمة بمعزل عن فهم جميع التحولات الفكرية والتقنية في التاريخ الحديث والمعاصر. ان أي قراءة متعمقة لمضمون الظاهرة أو رسم لتوجهاتها لا بد أن لا يغفل التطور الاقتصادي الذي ساهم في إبراز الظاهرة على ما هي عليه الآن. ولا يلغي مساهمة التطورات العلمية والتقنية في بلورة هذه الظاهرة، ولا يبعد الإيديولوجية التي فرضت النموذج العالمي وأرادت إن تمكن له بمختلف الوسائل المتاحة.

والعولمة لغويا هي تعميم الشيء إلى ابعد حد ممكن ، وتطبيقه على أوسع نطاق .

او هي تعميم الشيء وتوسيع دائرته ليشمل العالم كله (محمد عابد الجابري فيفري 1998، ص:16)

ويقابل المصطلح عولمة كلمة " GLOBALIZATION " المشتقة من " GLOBAL " في الإنجليزية والمقصود هنا الكرة الأرضية أو الكوكب الذي تعيش البشرية على سطحه أما في اللغة الفرنسية فهي تقابل كلمة MONDIALISATION المشتقة من MONDE ولا يرى بعض الفرنسيين حرجا من استخدام كلمة GLOBALISATION على اعتبار إن كلمة GLOBAL في اللغة الفرنسية لها معناها نفسه في الإنجليزية أي "الكرة".

أ) المفهوم الفلسفي الفكري.

تعترف الفلسفة بوجود سمات مشتركة لكل الإنسانية مما يدل على وجود هدف مشترك. وتؤكد أن شكل مجموعة بشرية مثالية يمكن أن يتحدد بالرجوع إلى عالمية الطبيعة البشرية.

يقول محمد الحماد في وصفه للعولمة بقوله : "هي ظاهرة عامة يتدخل فيها بشكل أساسي الاقتصاد ثم السياسة و الثقافة والاجتماع والسلوك ويكون الانتماء فيها للعالم كله عبر الحدود الوطنية (محمد الحماد سنة 1998 الأردن ص 16). وفي الاتجاه نفسه الذي يجعل من العولمة ظاهرة تستهدف جميع الأفراد تحت نظام اقتصادي وسياسي واجتماعي واحد وهو اتجاه متنام يصبح معه العالم دائرة اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية واحدة " (كمال عبد الغني المرسي، 1999 ، ص 93).

لتحليل محتوى المفهوم الفلسفي من خلال التعاريف السابقة لا بد من «مراعاة المقاصد» و"البواعث" أو "المفكر فيه" في عصر من العصور إننا محكومون في تصور (فكرة العولمة)، وشروطها وتطورها ومضمونها بما يُسميه الدكتور محمد عابد الجابري: "أسباب النزول" بتعبير القدماء.

كما أنه من خلال تحليل مضمون التعريفين تبين أن هناك تكاملاً بينها. فالأول يركز على البعد الفلسفي والنظرة الأيديولوجية الشاملة للعوامة، بينما التعريف الثاني، يشير إلى فكرة عالمية المجتمع البشري، الذي تذوب فيه جميع الفواصل.

وفكرياً ركز المستفيدون من العوامة على ترويج الأيديولوجيات الفكرية الغربية، وفرضها في الواقع من خلال الضغوط السياسية والإعلامية والاقتصادية والعسكرية أيضاً؛ وذلك في مجالات عدة كحقوق الإنسان، ومناهضة العنصرية، والديمقراطية، وحقوق الأقليات، وحرية الرأي. وإصدار الصكوك والاتفاقيات الدولية المصاغة بوجهة نظر غربية والضغط من أجل التوقيع عليها، مثل (الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، مكافحة التمييز ضد المرأة..اتفاقية حقوق الطفل الخ). وهذه الاتفاقيات وإن كان فيها بعض الحق إلا أن فيها الباطل وسيأتي الحديث بالتفصيل عن هذا، ويكفي أنها مصاغة بوجهة نظر وحيدة.

ب- المفهوم الإيديولوجي: وهو المفهوم الذي يعكس بصورة غير مباشرة عن إرادة الهيمنة على العالم وتغريبه أو أمركته، مستغلة مظاهر وآليات التطور الحضاري الذي يشهده العصر: فالهيمنة العسكرية بواسطة الأحلاف العسكرية، ومنها حلف الأطلسي، والسياسية بواسطة الهيمنة على مجلس الأمن، والاقتصادية من خلال المنظمات الدولية الاقتصادية مثل منظمة التجارة العالمية، والاجتماعية من خلال مؤتمرات دولية وإقليمية، والفكرية من خلال القوانين والاتفاقيات الدولية في هذا المجال؛ مدعومة بقوة دفع ضخمة بواسطة إمبراطوريات إعلامية وشبكة معلومات دولية (إنترنت) يسيطر الغربيون على معظمها؛ ومن هنا اعتبر (جارودي) العوامة هي الاسم الجديد للاستعمار، أما محمد عابد الجابري فيعتبرها آلية من آليات النظام الرأسمالي تعكس إرادة الهيمنة على العالم فالعوامة هي إذن ما بعد الاستعمار وهي تستهدف ثلاثة كيانات كما قال، الدولة والأمة والوطن. كما إنها تعمل علي اختراق مقدسات الأمم والشعوب في لغاتها وودولها وأوطانها وأديانها.

فالعملية هي اذن عملية إنتاج نظام هيمنة شامل ، ركيزته الأساسية اقتصادية بطبيعتها لكن تجلياته في المجالات السياسية والأمنية والثقافية والإعلامية لا تقل خطورة وأهمية عن تجلياته الاقتصادية.

ج-المفهوم الثقافي: إن العولمة ليست في اعتقادي مجرد تهديد بالسيطرة على الدولة وقراراتها والتحكم بالاقتصاد من خلال التنافس على الأسواق بل أن لها أهدافا تصل إلى أبعد من ذلك بكثير فهي تطل الثقافات و الهويات القومية والوطنية وتهدد الخصوصية، وترمي إلى تعميم أنموذج من السلوك والقيم والمفاهيم. وإذا كانت العولمة الاقتصادية بارزة في مظاهرها العامة فان العولمة الثقافية تزحف ببطء في الديار والمؤسسات .

في مجال الثقافة:

ان المفاهيم والقيم التي تبثها الثقافة ليست مباشرة في معظم الاحيان، وإنما تحصل بالتراكم البطيء والهادئ بحيث يشعر الانسان بمرور الوقت ان مفاهيمه قد تبدلت وان القيم التي يحملها تجاه قضايا كثيرة قد تغيرت. لقد ساهمت ثورة الاتصالات التي جعلت للتجارة بعدها العالمي هي التي حملت القيم الجديدة والعادات والأفكار، وهي التي ساهمت في تغيير عادات الناس وأذواقهم واتجاهاتهم. ان التدهور الاخلاقي يبرز جليا" في المجال الثقافي على مستوى السلوك والقيم، ويحتل "الثنائي" (الجنس والعنف) مساحة ثابتة في كل وسائل الاتصال القديمة والحديثة بأشكالها المختلفة، وحذر الكثير من الخبراء من اخطارها، وتصاعدت الشكوى من اثارها في انحاء العالم كافة، بما فيها دول الشمال نفسه. فإذا تأملنا المخاطر الناجمة عن الترويج للجنس وللعنف بعيدا عن كل الضوابط الاخلاقية وحتى المنطقية ادركنا حجم المخاوف التي تحيط بعالمنا الانساني كله، من جراء هذا التهميش الذي تتعرض له القيم الاخلاقية .

4 - في المجال الاجتماعي:

اصبحت ظاهرة الفساد منذ العقد الماضي من اهم الظواهر الخطيرة على

المجتمعات. وبغض النظر عن السبب الرئيس وراء شيوع الظاهرة الذي يرجعه البعض الى ضعف الوازع الاخلاقي العام، ويرعه آخرون الى تراجع شرعية الدولة كتجسيد للمصلحة العامة بعد ما فقدت سيطرتها الكلية في زمن العولمة، وذوبان القيم الجماعية التي ينشدها الافراد في البحث عن الفائدة والمصالح الانانية والخاصة التي فلسفة الشركات متعددة الجنسيات. وقد بيّنت بعض الدراسات ان المجتمعات الحديثة تشهد تراجعاً "اخلاقياً" هو الذي يشجع على الفساد واتساع مجالاته. وبرز مظاهر هذا التدهور ومخاطره هي تضخم ظاهرة الفردية بأشكالها كافة، والتداعيات التي نجمت عنها من الانكفاء على الحياة الخاصة والابتعاد عن الآخر، وعدم الاهتمام بالتضامن الاجتماعي والاستغراق في الذاتية، وما يبني على هذه الفردية من افكار وفلسفات تقوم على نفي أي حق للمجتمع في التدخل في شؤون الفرد وفي حياته الخاصة، والمفارقة هنا تكمن في ان العولمة وحدت العالم من جهة فجعلته كما يتردد قرية كونية، أي مكاناً صغيراً من دون حواجز بسبب الدور الذي لعبته وسائل الاتصال في التعرف الى العالم وشعوبه عن كثب. بينما دفعت هذه العولمة من جهة ثانية حياة الناس، الى العزلة والانطواء بسبب تضخم الفردية التي اشرنا اليها. والمفارقة الثانية في هذا الاطار، ان العولمة ما كان بمقدورها ان تعمل إلا لأنها ورثت سلسلة من الانماط السلوكية والأخلاقية من المراحل التي سبقتها:

كما انتشرت مواقع القمار على الانترنت التي يتوقع ان تصل إيراداتها في الاعوام القليلة المقبلة الى نحو ستة مليارات دولار.. وفي اوروبا كان عام 2000 عاماً "اسود بكل معنى الكلمة، فتجارة المخدرات والسجائر، والأدوية التي غالباً ما يكون تاريخ صلاحيتها قد انتهى منذ اشهر، وقطع الغيار غير الاصلية والألبسة التي تم تزوير ماركاتها، والسيارات المسروقة، خصوصاً الفخمة منها، وترويج عمل شبكات الدعارة، اضافة الى التهريب المنظم لليد العاملة عبر الحدود.. كما تدر تجارة الاسلحة غير المشروعة والتهريب بأنواعه كافة مبالغ ضخمة سنوياً.. ويقدر صندوق النقد الدولي حجم تبييض الرساميل بين 2 و5% من اجمالي ناتج الدول القومي العالمي، أي ما يوازي قدرات اقتصاد بلد كإسبانيا او فرنسا مثلاً.. ويراوح دخل معتمدي تهريب اليد العاملة من الدول الفقيرة الى الاتحاد الاوروبي وبحسب تقارير

الانتربول بين 3 و4 مليارات دولار. ولا تقل تجارة الدعارة اهمية في اقتصاد الجريمة منذ انهيار جدار برلين في بداية العقد الماضي.

نتساءل فنقول هل يمكن في ظل هذه الارقام التي جناها اصحابها من فساد عابر للقارات ان يعيدوا إنتاج القيم على هذه القاعدة الوحيدة التي اعتمدها اصحاب هذه الاموال؟ اذا كان الامر كذلك، فعلى جميع من يعمل في أي قطاع كان ان يجعل الحصول على المال، والمال فقط نصب عينيه. أي ان على القضاة، على سبيل المثال، أن يبيعوا قرارات المحاكم في المزاد العلني، وان على المدرسين ان يعطوا العلامات الجيدة لمن يدفع اكثر من اولياء التلاميذ.

تحديات العولمة في المجال الثقافي

إذا كانت الثقافة هي فن "استثمار المعرفة" (حواس محمود، 2003. ص: 20)، حيث يستوعب الفن كل القدرات الإبداعية والتخيلية لدى الأفراد والجماعات، وبالمقابل يستوعب الاستثمار كل الأساليب والتصرفات الموزونة المقننة التي تتعلق بالجانب الاستخدمي والتخطيطي. كما يقصد بالعولمة الثقافية أيضا حسب بعض الدوائر محاولة تعميم النمط الثقافي البارز على جميع صور الحياة الثقافية في كل المجتمعات. وقد ساهمت التكنولوجيا في بروز العولمة الثقافية وعملت على "تصدير القيم الثقافية خاصة الأمريكية إلى كل الجهات. وقد كثر الجدل حول أبعاد هذا التعميم بين من يرى فيه مجرد انفتاح على الثقافات الأخرى، والاستفادة من تجارب الغير في الفن والعلم والأدب والفلسفة...ومن يرى فيها التهميش والقضاء على الخصوصيات الثقافية التي تحدد هويات الشعوب.

إذن ما هي أهم التحديات الثقافية التي تواجه الدول والشعوب في ظل العولمة؟

هناك عدة تحديات في نظرنا تواجه الدول والشعوب في ظل العولمة وأبرزها

1. تحدي العولمة للسيادة الثقافية للدولة القطرية:

لكل دولة من الدول سيادة ثقافية تتمثل في مجموعة الجوانب المكونة لثقافة أفراد تلك الدولة (لغتهم، ودينهم، وعاداتهم وتقاليدهم، وكل ما يعبر عن

الهوية الثقافية) لذلك فالدولة ترفض أي اختراق لسيادتها الثقافية، و تجهز جميع مؤسساتها الثقافية لمواجهة أي هجوم خارجي يمس خصوصياتها الثقافية. قال أحد الكتاب: "إن الأمة العاجزة عن المحافظة على جوهر كينونتها، وروحها الحضاري والدفاع عن خصوصياتها...أي القابلة للذوبان في أي محلول حضاري غريب عنها ليست جديرة بالبقاء، ولن تجد من يأسف عنها " فأفلام السينما و الأغاني و العادات و الأزياء و الأنماط التي تقدمها القنوات التلفزيونية لا شك أنها تؤثر على الأفراد، لذلك لا بد أن تكون خادمة للأفراد في قيمهم ومعتقداتهم و محافظة على هويتهم، و السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل يمكن لهذه الشعوب أن تصمد أمام الغزو المتواصل من الأفكار و القيم و الشعارات و الصور الأجنبية المخالفة لجميع عناصر الثقافة المحلية في زمن ثورة الاتصالات ؟ خاصة اذا علمنا كما يقول كلايتون براون Clayton BROWN " ان التكنولوجيا أصبحت تسوق العولمة (Clayton BROWN , 2003 p:43)

نقول أن ما تقدمه وسائل الإعلام الأجنبية من معطيات ثقافية متمثلة في: مادة إعلامية، أشرطة، قيم ، صور، بيانات، شعارات ، نشاطات مختلفة ، أحداث) يقود الأفراد إلى عالم غير عالمهم (ترسم فيه الآمال و الإمكانات والأحلام) و هنا يستفز الأفراد في مرجعياتهم و مرتكزاتهم الثقافية، بإخراج أزمات الهوية التي أصبحت اليوم من أكثر المسائل التي تواجه الشعوب. بالمقابل فقد استفادت كثير من الشعوب من الثمار الإيجابية لثورة الاتصالات، حيث تسنى للمجموعات الاثنية المحافظة على جوانب مهمة من خصوصياتها الثقافية، وفي هذا المجال يقول أحد الباحثين: " إذ أن العمال الأتراك في ألمانيا شاهدوا عام 1988 الألعاب الأولمبية لحظة وقوعها في سيول . من خلال إذاعتها بالأقمار الصناعية ، كما ان سائقا باكستانيا لتاكسي في شيكاغو يسمع الشرائط والأناشيد الدينية المسجلة في باكستان و إيران. وهكذا نشهد صورا متحركة تتقابل مع مشاهدين لا ينتمون إلى إقليم محدد و ثابت و بعبارة أخرى ينقل الناس هوياتهم معهم خلال هجرتهم و لا يفقدون الصلة تماما بها من خلال تفاعلهم مع الإعلام و وسائل الاتصال". (السيد ياسين، 1997، ص:20). و إذا كان هذا النص يعبر عن جانب من الحقيقة فإنه لا يعبر عن الحقيقة كلها فإذا صح أن بعضا من

الناس ينقلون معهم خصوصياتهم الثقافية ويحافظون عليها فإن آخرين وهم الأكثرية من يذوبون في المجتمع الجديد وتنحل ثقافتهم لصالح مجتمع الثقافة الأجنبية .

2- تحدي النمط الثقافي الأحادي (في مواجهة التنوع الثقافي).

من الأسئلة التي نطرحها كثيرا لما يتعلق الأمر بالتحديات التي تواجه سيادة العولمة هي إلى أي مدى يمكن أن تحافظ ثقافة ما على الخصوصيات التي تميزها دون أن تتأثر سلبيا بالثقافات الأخرى؟

للجواب على هذا السؤال لا بد من الإشارة إلى أن الثقافة الحية هي: "الثقافة التي تتفاعل مع المحيط الثقافي تفاعلا إيجابيا أي تجعل لنفسها مكانا ضمن الثقافات العالمية، بحيث تعطي وتأخذ، تنتج ولا تنغلق على ذاتها لأن الثقافة التي تأخذ ولا تعطي ستظل الثقافة الأضعف، الثقافة المتلقية التي يسهل السيطرة عليها". (د. ليلي شرف، 1997، ص: 9).

و العولمة هي المجال الذي يمكن إحداث التفاعل الثقافي الحقيقي فيه لأنها تسمح برفع الحواجز بين الشعوب، وربط الأفراد مع غيرهم، من خلال شبكة الاتصال المنتشرة عبر العالم، و من ذلك نجد دور الإنترنت التي تعمل على تقريب المادة الثقافية سواء كانت فيلما أم شريطا أم إعلانا أم صورة أم أغنية أم أي نشاط آخر يتجلى في الصورة التي يتلقاها الأفراد.

التنوع الثقافي ضرورة طبيعية :

يعتبر التنوع الثقافي سنة من سنن الكون لأن الحياة أساسها التنوع و التعدد، حيث ورد في القرآن الكريم قول الله تعالى: "و من آياته خلق السماوات و الأرض و اختلاف ألْسنتكم و ألوانكم" الروم 22. و اختلاف ألْسن يعني تعدد

القوميات و اختلاف الألوان يعني تعدد الأجناس البشرية وهذا ينجر عنه اختلافات أخرى في أنماط المعيشة، إذ يقول الله عز وجل أيضا: "لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما أتاكم فاستبقوا الخيرات"المائدة 48 .إن تعدد الشرائع والأديان الوارد في هذه الآية يؤدي إلى التعدد الحضاري على أساس أن الحضارة تنشأ بفعل الفكرة الدينية وإذا تعددت الحضارات فإن الثقافات تتعدد وتتنوع من هنا نخلص إلى القول: "إنه إذا كان التنوع الثقافي سنة الله في خلقه فإن الذي يحاول فرض ثقافة واحدة على الآخرين بالقوة يتصادم مع سنة الله في الكون ويهدد هذا الوجود. هناك رؤية صائبة تعزز هذا التنوع وترى فيه أهمية كبرى حيث يغنى التراث الإنساني بفضل مساهمة جميع الأجناس في صناعة التراث العالمي. والإسلام كدين سماوي يتضمن اعترافا باختلاف الناس ويحترمهم في لغاتهم و عاداتهم وأديانهم كما قال تعالى: "لا إكراه في الدين". البقرة 256 لأن الله هو الذي خلق هذا الاختلاف والتميز ولكن دعاهم إلى التعارف والتعاون على ما فيه خير الإنسان والالتقاء في دائرة "العالمين" من خلال احترام كل الهويات الثقافية.

الانفتاح الثقافي ضرورة حضارية:

إن التنوع الثقافي باعتباره التراث المشترك للإنسانية ضروري للتجمع البشري ضرورة التنوع البيولوجي للكائنات البشرية ، لأنه أفضل ضمان للسلام، ومعه تتجدد القناعة الرافضة لمقولة حتمية النزاع بين الحضارات، لذلك لابد من صيانة هذا التنوع والدفاع عنه كما تجليه رسالة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان. قال المهدي المنجرة عن أطروحته الحرب الحضارية مخالفا لفكرة هانتغتون القائلة بصدام الحضارات "يعتبر هانتغتون أن البذرة الوراثية موجودة في الحضارات وفي نظري ليس ثمة ثقافة تولد أصلا عدوانية أو لتصارع حضارة أخرى"(المهدي المنجرة، 2004 ، ص: 28، 27) وهذا النص وإن كان يتضمن رفضا للصراع الحضاري كما بينه هانتغتون فإن المنجرة يقول بفكرة الحرب الحضارية التي أعلنتها القوى الغربية على مخالفيهم في حضارتهم.

كيف يمكن المحافظة على التنوع الثقافي؟

تعتبر التعددية الثقافية ثروة كبيرة في يد الشعوب يجب المحافظة عليها ، وقد أشارت منظمة اليونسكو إلى ضرورة المحافظة عليها حيث نصت المادة الأولى من الإعلان الصادر عنها في 1966/11/3 على أن لكل ثقافة كرامة وقيمة يجب احترامهما، ومن حق كل شعب و من واجبه أن ينمي ثقافته. ونظرا لخطورة اختلال التوازنات الثقافية عندما تضعف اللغات و الثقافات أو تمارس عليها الهيمنة المذبذبة لها، فإن مختلف المنظمات الثقافية حذرت من اختفاء ثقافة من الثقافات العريقة. وهذا بطرس غالي أمين عام للمنظمة الفرانكفونية يقول متحدثا عن أهمية التعددية الثقافية : "هدفنا الدفاع عن التعددية الثقافية ، التعددية اللغوية، فلو سيطرت لغة واحدة على المجتمع الدولي فإن ذلك سيؤدي إلى إضعاف اللغات الأخرى ، وهذا خطأ كبير وخطير. فاللغات هي في رأي بمثابة التراث الإنساني، و ثراء المجتمع الدولي قائم على تلك التعددية وكما أن هناك منظمات دولية أنشئت للدفاع عن البيئة وعن بعض النباتات وبعض الحيوانات ، يجب أيضا الدفاع عن الحضارات وعن الثقافة وعن التعددية الحضارية".(بطرس غالي، " سنة 1998، ص154). فعلا فإن التنوع اللغوي مصدر ثمين من مصادر قوة الإنسانية لذلك ينبغي المحافظة عليه.

لكن التحدي الحقيقي الذي يواجه الشعوب في سيادتها الثقافية، هو أن بعض الثقافات القوية، استطاعت التأثير في متلقيها (الثقافة الاستعمارية) و بالمقابل اندثار بعض الثقافات الضعيفة والجامدة (التي لا تقدم إنتاجا)، وهذا ما يشكل خطرا على التنوع الثقافي، وفي هذا المجال يقول أحد الكتاب " إن الإنتاج الثقافي و احتكار الرموز والقيم هما أبرز ما يطبع النظام العالمي الراهن على مستوى إنتاج و توزيع الثقافة.ولقد انتقل النظام الرأسمالي في هذه المرحلة من طور تعميم القيم الاقتصادية والعلاقات الإنتاجية الرأسمالية ومن طور الأنظمة الاقتصادية الليبرالية إلى طور تعميم القيم الثقافية للمجتمع الغربي، بوصفه (أي

التعميم)آلية من آليات إعادة إنتاج هيمنة النظام الرأسمالي على الصعيد العالمي. ولقد استفاد النظام الرأسمالي جيدا من الثورة الإعلامية المعاصرة ، ووظفها أمثل توظيف في سبيل تحقيق ذلك التعميم أو " العولمة " للقيم الثقافية الغربية. فالمؤسسات الإعلامية الضاربة تكفلت بتخطيم الحدود القومية والحواجز والسياسات الثقافية الحمائية ، لكي تكتسح المجال العالمي بالصوت والصورة و توحّد الرموز والأذواق والمعايير والقيم". (عبد الله بلقزيز 79 ، عام 1994). ويشهد واقع اليوم على طابع الاستلاب للنظام العالمي الجديد .

الانفتاح الثقافي يعني التفاعل على أساس الاحترام، والمحافظة على التنوع الثقافي في كل زمان ومكان. ويعني استغلال جميع الفرص التي تتيحها العولمة من أجل تجديد الثقافات بجعلها حية، ومעطاءة تبرز الخصوصيات بشكل تفاعلي، لا يلغي الآخر في ثقافته.

ولعل التطورات التقنية الحاصلة على مستوى الاتصال والمعلومات ، تساعد على تقارب الثقافات مع بعضها، وهو ما يعمق الوعي الحضاري عند كل الشعوب ويجعلها أكثر قربا من بعضها . لكن من سلبيات هذا الانفتاح الثقافي أن يتحول إلى هيمنة ثقافة على أخرى بإلغائها، أو إذابة خصوصياتها، ومن هنا اعتبرت مشكلة الهوية من اعقد المشاكل في العصر الحديث، وهذا ما ينطبق على محاولة الولايات المتحدة الأمريكية استغلال تفوقها في مختلف مجالات الحياة، وجعل العولمة وسيلة للقضاء على التنوع الثقافي، بفضل التصميم الكبير للنموذج المعادي للتعددية الثقافية، والملغي للتمايز والشخصية المستقلة، والذي يحول الإنسان إلى مجرد مستهلك مستلم ومشاهد متلق يتم ترويضه على النمط الواحد. وفي هذا السياق يقول عبد الله بلقزيز: " ما يؤخذ على العولمة تنميطها للأخلاق وقضاؤها على الثقافات لصالح تكوين حضارة مادية تكرر هيمنة وسيطرة الأطراف القوية وهو ما يستثير رد فعل قوي من جانب الهويات الوطنية. (عبد الله بلقزيز ، " 1994 ، ص: 86).

سيطرة الثقافة الأمريكية على سائر الثقافات:

لقد عملت الإنترنت و القنوات الفضائية على تغيير أوضاع العالم فأصبح الناس يعيشون في قرية صغيرة و تحول هذا الكوكب إلى مسرح مفتوح على كل الجهات. يمكن لأي واحد أن يتصل بالآخر بالصورة والصوت، غير أن أهم ميزه فيه هي غلبة دور البطل في هذا المسرح، و البطل هنا يقوى دوره على حساب ضعف الأدوار الأخرى. وقال احد الكتاب مبرزا الدور الامريكي البارز في العولمة الجديدة: " ليس ما يفترضه الجميع خطأ على الدوام. ثمة في الحقيقة ثقافة كوكبية ناشئة، وهي بالفعل أمريكية إلى حد كبير من حيث الأصل والمحتوى" (بيتر إل ، 2004 ، ص: 15).

ليس غريبا على السياسات والتوجهات المعاصرة للأقوياء أن تعمل على نشر القيم التي تساعد على تحقيق جميع أهدافها. لا سيما بعد أن أصبح العالم محكوما بسياسة قطب وحيد كسب الحرب الباردة وهزم الايديولوجيات المناوئة له وتفوق في مختلف المجالات الصناعية والتقنية والمعلوماتية، وهي عناصر لها أهميتها الواضحة، كما أشار إلى ذلك احد الكتاب في حديثه عن مميزات العولمة الثقافية: " إن أهم ما يميز العولمة الثقافية المعاصرة قوة الوسائل التقنية المستخدمة في الإنتاج والبهث والتوزيع الخاص بالمنتجات الثقافية (Jaques p : 239 , 2005 ,brasseul)

فالثقافة الأمريكية هي ثقافة قوية وتعمل على إقصاء الثقافات الأخرى المحلية الآيلة نحو الدونية و التلاشي، وهذه السيطرة هي التي يعبر عنها بأمركة العالم، و التي تجلت بكل صراحة على أفواه بعض المسؤولين الأمريكيين وهذا الرئيس الأمريكي جورج بوش يقول: " أن القرن القادم سوف يشهد انتشار القيم الأمريكية وأنماط العيش والسلوك الأمريكي" إن أمريكا تعمل على فرض التبعية الثقافية من خلال غزو الثقافات الأخرى، وتخريب قيم الآخرين بعد التشكيك فيها باستقطاب الأجيال الصاعدة عن طريق دغدغة المشاعر، والتحكم في الميول والأذواق، مستغلة في كل هذا تفوقها العلمي والتقني وسيطرتها العسكرية و السياسية. ويلعب التلفزيون دور مهم في تبليغ الثقافة وفي الحالة التي تعترف بوجود ثقافة قوية فان الخطر كله يكمن في العيش داخل ما يعرف بالامبريالية الثقافية - (Tristan Mattelart, 2002 P :29)

وفي هذا المجال تتحدث الكاتبة الأمريكية عن هيمنة الثقافة الأمريكية فتقول: "إن
أمركة الثقافة العالمية تكشف عن الأذواق الثقافية للعالم." (Ithiel de sola
pool , 145: p 1977) وبذلك لا تفرق بين ما يرغب في مشاهدته الجمهور
الأمريكي، وبين ما ترغب في مشاهدته الجماهير الأخرى في العالم.

من أبسط الأدلة على اجتياح الثقافة الأمريكية حسب تقرير لبرنامج الأمم
المتحدة الإنمائي أن أمريكا تصدر 2,1 مليون ساعة من البرامج التلفزيونية . وفي
دراسة أخرى

لليونسكو تجاوز بث الإنتاج الأمريكي في تلفزيونات العالم ثلاثة أرباع ذلك البث أي
بنسبة 85 % و تتوزع نسبة الجزء الباقي بين الإنتاج المحلي وبين الإنتاج غير
الأمريكي و 88% من معطيات الإنترنت تبث باللغة الإنجليزية مقابل 9% بالألمانية
و 2% بالفرنسية و 1% تتوزع على اللغات الأخرى ، كما تذكر بعض الإحصائيات
أن 80% من إيرادات دور السينما هي من الإعلام الأمريكية و 60% منها ما يعرض
في فرنسا.

هكذا تنتشر الصورة الأمريكية في العالم بشكل كبير ولا يعقل أن الصور الأمريكية
بريئة بل العكس هي تحتل جوهر الثقافة الأمريكية وبالتالي فهي تتركس قوة
النظام الأمريكي الذي يتجلى في النواحي العسكرية والاقتصادية والسياسية و
لعل ما يقف وراء انتشار هذه الثقافة بهذا الشكل هو خصوصية المجتمع الأمريكي
و خصوصيته الثقافية.

-فهو (المجتمع الأمريكي) منفتح كثيرا، قابل للعطاء والتغيير والتجديد وقادر
على الإبداع في كل حين.

الثقافة في أمريكا متنوعة بتنوع الأجناس ومتعددة بتعدد المجتمعات خارج أمريكا
هذا ما يساعدها على الانتشار خارج أمريكا.
التراث الأمريكي مرن وما زال يتشكل إلى الآن.

والسؤال الذي نطرحه الآن: ماهي مخاطر سيطرة الثقافة الأمريكية؟

إن سيطرة ثقافة ما على ثقافات أخرى هو خطر استراتيجي يهدد الاستقلال
الاقتصادي والسياسي والهوية الثقافية.

إن ما يدل على هذه الخطورة هو مناهضة فرنسا لما نسميه بالأمركة... ولذلك
فهي تحصن نفسها بمجموعة من الإجراءات حيث فرضت على التلفزيون
تخصيص 60% من برامجه للإنتاج الأوروبي خوفا من طغيان الإنتاج الأمريكي على
الفرنسيين

كما حجبت المساعدات المالية على التظاهرات الثقافية الفرنسية التي لا تجعل
اللغة الفرنسية لغة أعمالها..

وفي هذا الجانب لا نغفل أن نسجل أن سيادة ثقافة ما على أخرى لا تكون حسب
التفوق القيمي والأخلاقي والإنساني على غيرها وإنما يرتبط بقابلية الثقافات
الضعيفة على الدَّوبان وكذلك التبعية والاندماج الذاتيين في الثقافة المسيطرة
وفق شعار ابن خلدون: "المغلوب مولع بتقليد الغالب". (ابن خلدون: 1989
ص: 147) هذا بالإضافة إلى مقدرتها على الإبداع وفق الإستراتيجية التي تمكنها من
الاستمرارية والمشاركة وليس الانغلاق على الذات وإعادة إنتاج ثقافة ماضية
رافضة ومحتجة على الثقافة الغربية .

وهنا يمكن الإجابة على أولئك الذين يربطون الهوية بالماضي فقط فهم يخافون
من العولة التي تعمل على تنميط القيم والأفكار وتوحيد المنتجات الثقافية، غير أن
مفهوم الهوية أوسع واشمل من الارتباط بالماضي وبما تم انجازه. والحقيقة أن
الهوية ترتبط أيضا بالمستقبل، وبطموح الأمة وأمالها في بناء مستقبلها من خلال
استثمار مكتسبات الماضي. وقد عبر أحدهم عن هذه الفكرة في قوله: " إن
التحولات الكونية قد ألقت بنا في آتون آلة حضارية جهنمية لا نملك أن نقف
قبالتها عند حدود النظر إلى عجائب تركيبها، وطرائق عملها، وفعلها، مأخوذين
بالدهشة والاستغراب أو الذعر فحسب إن كل شيء يوجب إن كانت الحياة تعني
لنا شيئا، وإن كان البقاء أمرا يشغل بالنا، ويقلق راحتنا، أن نصوب أنظارنا إلى ما
يحدث ، وإن نبدع الآليات الفاعلة التي تربي لنا استجابات مطابقة تعين على
الحياة، وعلى استمرار الوجود في شروط آمنة لنا نحن وللآتين من بعدنا ممن
يمتون لنا بروابط خاصة في تلك التي نتكلم عليها ، ونحيل إليها في كل مرة نريد أن

نعرف بأنفسنا وخصوصياتنا الشخصية أو التاريخية أو الحضارية أو الإنسانية قبالة الآخرين والاعيار" (فهيمى جدعان ، 1996 ، ص: 7).

نستخلص مما سبق أن العولمة لا تهدد الهوية إلا بالنسبة لرؤية تربط الهوية بالماضي وتعتبرها معطى جاهزا أو مكتملا بينما الهوية كما ترتبط أيضا بالمستقبل كذلك أي بطموح الأمة وأمالها في البناء والتشييد وصناعة مستقبل يربط الماضي بالحاضر وبعبارة أخرى يستنير من الماضي ويستثمر ما هو متاح عالميا وهكذا يكون التحدي أمام الثقافات الضعيفة تحديا مزدوجا أي صراعا ضد السيطرة والهيمنة الخارجية من جهة وصراعا ضد العجز والقصور من جهة أخرى. خلاصة الأمر يمكن القول أن الممارك الثقافية التي تخوضها المجتمعات، دفاعا عن تراثها، و تقاليدها، ولغتها، ودينها، أعمق تجربة تحريرية تحاول بها تجاوز الرواسب الماضية من جهة ، وآليات الاستلاب الفكري، و الهيمنة الإيديولوجية من جهة أخرى. كما أن البعد الثقافي هو معيار أولى لتحديد طبيعة مجتمع ما. وترتكز عليه أية محاولة للتححرر أو التغيير الاجتماعي أو التنمية المستقلة، ولذلك يجتهد المجتمع المثقف لمواجهة الخطاب الثقافي الهيميني، وإذا غاب هذا الخطاب الثقافي النقدي، في مجتمع ما فإنه يكرس الاستلاب واللافاعلية ، وهذا ما يسهل لنظام العولمة تطبيق فعل الاندماج الثقافي المطلق للغرب.

إن تدمير الثقافات المستضعفة يسهل للعولمة إحلال ثقافات أخرى تروج لمختلف البضائع المراد تسويقها ، وتعلن عن القيم الجديدة التي تخدم الرأسمالية.

المراجع

- محمد عابد الجابري " العولمة والهوية الثقافية: عشر أطروحات " ، مجلة المستقبل العربي، العدد 228 فيفري 1998، ص:16
- عزت السيد احمد انحياز مزاعم العولمة قراءة في تواصل الحضارات وصراعاها، دراسة من منشورات اتحاد الكتاب العرب عام 2000.
- محمد الحماد "العرب وقطار العولمة السريع"، مجلة المنتدى . العدد 156 سنة 1998 الأردن
- كمال عبد الغني المرسي، العلمانية والعولمة والأزهر ، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ، 1999 ، ص 93.

- محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر: العولمة، ص: 148 .
- السيد ياسين، "صياغة الهوية وعولمة الخيال في القرن الحادي والعشرين" مجلة المنتدى، الأردن، المجلد 12، العدد 147 ديسمبر 1997، ص: 20.
- د. ليلي شرف، "التحديات التي تواجه الإعلام العربي في المرحلة القادمة" مجلة الرسالة، دمشق، المركز العربي للدراسات الإستراتيجية، العدد الخامس، أكتوبر 1997، ص: 9.
- المهدي المنجرة، "الاهانة في عهد الميغا امبريالية"، الطبعة الأولى، 2004، مطبعة النجاح المغرب، ص: 27، 28
- بطرس غالي، "هدف فرانكفونية الدفاع عن التعددية الثقافية"، مجلة السياسة الدولية، العدد 133 ، سنة 1998، ص: 154 .
- عبد الاله بلقزيز "الثقافة العربية امام تحدي البقاء" مجلة شؤون عربية العدد 79، عام 1994.
- عبد الاله بلقزيز، "الثقافة العربية امام تحدي البقاء"، مجلة شؤون عربية العدد 79، سنة 1994، ص: 86.
- بيتر إل. برغر و سامويل، بي، هنتفتون، "عولمات كثيرة، التنوع الثقافي في العالم المعاصر"، ترجمة فاضل جتكر، مكتبة العبيكان، الرياض، 2004. الطبعة الاولى، ص: 15.
- علي عقلة عرسان ، "العولمة والثقافة"، مجلة الفكر السياسي، العدد الخامس، السنة الثانية، شتاء 1999، سوريا
- فهد العرابي الحارثي، "العولمة عصر سيطرة الثقافة الأمريكية على سائر الثقافات"، مجلة عالم الاقتصاد، العدد 86. حواس محمود، "التكنولوجيا والعولمة الثقافية"، المنارة، بيروت، الطبعة الأولى، 2003. ص: 20
- ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون دار القلم، بيروت، الطبعة السابعة 1989 ص: 147
- Rachid sfar- , régulation et solidarité, plaidoyer pour des reformes internationales et un programme de relance économique au profit de tous les pays ، L'harmattan. Paris 1999, P : 43
- Tristan Mattelart, « la mondialisation des medias contre la censure –tiers monde et audiovisuel sans frontières », édition de Bœck université -Bruxelles -1^{er} édition 2002 P :29
- - Ithiel de sola pool, "the changing flow of television" – journal of communication ,vol 27 N° :02 ,1977 p :145

- Jaques Brasseul, un monde meilleur ? pour une nouvelle approche de la mondialisation , édition Armand Colin, Paris 2005 ,p : 239
- - Leonard le Blanc, “cultural globalization” p.08
- Clayton BROWN , “globalization and America since 1945 scholarly resource” , Wilmington, U.S.A, 2003 p:43
- Ghassan Salamé , (Christophe Bertram , Nicole Gnesotto , Andrew Arato) Agir, entre solidarités et conflits. Colloque éthique et relation internationale : choc des identités, démocratie et ordre international. 9- 03- 2006 CERI, Paris.